الحلقة (٣٦)

تكلمت في الحلقة الماضية عن معنى الرب وعن أسماء هذا التوحيد، وأتكلم في هذه الحلقة عن أدلة توحيد الربوبية وما يتيسر بعدها من المفردات:

❖ أدلة توحيد الربوبية

أدلة توحيد الربوبية كثيرة ومتنوعة تدل على تفرد الله بالربوبية على خلقه أجمعين، فقد جعل الله لخلقه أمورا لوتأملوها حق التأمل وتفكروا بها لدلتهم إلى أن هناك خالقا مدبرا لهذا الكون، **والقرآن مليء بذكر الأدلة** على ربوبيته عز وجل، فمن ذلك قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} وقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ} وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} وقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} وقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.ومن الدلالات على ربوبية الله سبحانه وتعالى على خلقه **دلالة الفطرة**، ذلك أن الله سبحانه وتعالى فطر خلقه على الإقرار بربوبيته، وأنه الخالق الرازق المدبر المحيي المميت، فالإيمان بالربوبية أمر جبلي مركوز في فطرة كل إنسان ولا يستطيع أحد دفعه ولا رفعه، **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: "ولما كان الإقرار بالصانع فطريا كما قال صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة) الحديث، فإن **الفطرة تتضمن الإقرار بالله والإنابة إليه** وهو معنى لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يعرف ويعبد". انتهى كلامه رحمه الله من مجموع الفتاوى.

ولهذا فإن المشركين في الجاهلية كانوا مقرين بتوحيد الربوبية مع شركهم في توحيد الألوهية، ومما يدل على ذلك ما هو موجود ومبثوث في ثنايا أشعارهم ومن ذلك قول عنترة بن شداد العبسي:

يا عبلُ أين من المنية مهربي *** إن كان ربي في السماء قضاها

ويقول زهير بن أبي سلمى:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم*** ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر ويوضع في كتاب فيدخر*** ليوم الحساب أو يعجل فينقم

ولقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك في القرآن الكريم كما في قوله تعالى **{**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}.

أيضا من الأدلة على ربوبية الله سبحانه وتعالى **دلالة الأنفس**، فالنفس آية كبيرة من آيات الله الدالة

على ربوبيته، ولو أمعن الإنسان النظر في نفسه وما فيها من العجائب لعلم أن وراء ذلك ربا حكيما خالقا قديرا، يقول الباري {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِير} ويقول الباري جل وعلا: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}.

أيضا من الدلالات على ربوبية الله **دلالة الآفاق**، كما قال سبحانه وتعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} فلو تأمل الإنسان الآفاق وما أودع الله فيها من الغرائب والعجائب؛ لأدرك أن هناك خالقاً لهذه الأكوان وأنه عليم حكيم.

لم ينكر توحيد الربوبية أحد من البشر، إلا طائفة ممن شذوا من المكابرين والمعاندين المنكرين لما هو متقرر في فطرهم أو في أنفسهم، فإنكارهم إنما كان بألسنتهم مع اعترافهم بذلك في قرارة أنفسهم.

ومن أشهر من عرف بذلك **فرعون** الذي قال لقومه كما أخبر الله عنه قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} وقال: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}، وكلامه هذا مجرد دعوى ولم يقم عليها بينة ولا دليل، بل كان هو نفسه غير مؤمن بما يقول، قال سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} وأخبر عز وجل وهو العليم بذات الصدور أن كلام فرعون ودعواه لم يكن عن عقيدة ويقين، وإنما هو مكابرة وعناد، يقول الله تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}.

ومن أنكر ذلك أيضا **الشيوعيون** بقولهم لا إله، والدين أفيون الشعوب، والحياة مادة، فقد أنكروا ربوبية الله تعالى بأن أنكروا وجوده بناء على عقيدتهم الخبيثة، وهم في الحقيقة لم يزيدوا على أن سموا الله بغير اسمه بحيث أنه الطبيعة، حيث قال أن الحياة مادة، ونعتوها بنعوت الكمال التي لا تليق بأحد إلا لله عز وجل، فقالوا الطبيعة حكيمة، الطبيعة تخلق، إلى غير ذلك، وكلامهم هذا باطل متهافت، بل إن أصحاب هذا المبدأ انشقوا على أنفسهم ولعن بعضهم بعضا، وكفر بعضهم ببعض.

أنواع ربوبية الله سبحانه وتعالى على خلقه على نوعين: **ربوبية عامة وربوبية خاصة.**

النوع الأول: **الربوبية العامة وهي لجميع الناس**، برهم وفاجرهم، ومؤمنهم وكافرهم، وهي خلقه للمخلوقين ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

النوع الثاني: **الربوبية الخاصة وهي تربيته لأوليائه المؤمنين**، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.

توحيد الربوبية هذا النوع من التوحيد ليس هو الغاية من التوحيد، فهو حق وأمره عظيم، ولا يصح إيمان العبد إذا لم يؤمن به، ولكن هذا النوع من التوحيد ليس هو الغاية التي جاءت بها الرسل وأنزلت من أجلها الكتب، وليس الغاية التي من جاء بها فقد جاء بالتوحيد كاملا وكمل توحيده،

ذلك أن الله أمر بعبادته التي هي كمال النفوس وصلاحها وغايتها، ولم يقتصر على مجرد الإقرار به كما هو غاية الطريقة الكلامية، أضف إلى ذلك أن المشركين كانوا مقرين به كما مر، ومع ذلك لم يدخلهم في الإسلام، لأن الإقرار بتوحيد الربوبية لا يكفي وحده بل لا بد من توحيد الألوهية، ثم إن توحيد الربوبية مركوز في الفطر كلها، فلو كان هو الغاية لما كان هناك حاجة من إرسال الرسل وإنزال الكتب.

هذا التوحيد له فوائد عظيمة وله آثار وثمرات كثيرة، فإذا أيقن المؤمن أن له ربا خالقا هو الله سبحانه وتعالى، وهذا الرب هو رب كل شيء ومليكه ومصرف الأمور، وأنه هو القاهر فوق عباده، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض؛ أنست روحه بالله واطمأنت نفسه بذكره، ولم تزلزله الفتن والأعاصير، واتجه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والالتجاء والاستعانة، وكان دائما خائفا من تقصيره وذنبه، لأنه يعلم قدرة ربه عليه ووقوعه تحت قهره وسلطانه، **فتحصل له بذلك التقوى**، والتقوى رأس الأمر بل هي غاية الوجود الإنساني، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا**).

ومن ثمراته أن الإنسان إذا علم أن الله هو الرازق وآمن بذلك، وأيقن أن الله بيده خزائن السموات والأرض لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، **قطع الطمع من المخلوقين**، واستغنى عما بأيديهم، **وانبعث إلى إفراد الله بالدعاء، والإرادة والقصد**، ثم إذا علم أن الله هو المحيي المميت النافع الضار، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن أمره كله بيد الله؛ **انبعث إلى الإقدام والشجاعة غير هيَّاب**، وتحرر من رق المخلوقين **ولم يعد في قلبه خوف من سوى الله عز وجل**، وهكذا نجد أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، والكلام في مقتضيات الربوبية وما تثمره من ثمرات يفوق الحصر والعد وهذه بعض الإشارات.

🡸ما ضد توحيد الربوبية ؟

يضاد توحيد الربوبية **الإلحاد**، **والإلحاد** هو: **إنكار وجود الرب عز وجل، ويضاده أيضا اعتقاد الند المتصرف مع الله عز وجل في أي شيء من تدبير الكون** من إيجاد أو إعدام، أو إحياء أو إماتة، أو جلب خير أو دفع شر، أو غير ذلك من معاني الربوبية أو **اعتقاد منازع له في شيء من مقتضيات أسمائه وصفاته**، كعلم الغيب أو كالعظمة والكبرياء ونحو ذلك، كما و يضاده أيضا **اعتقاد مشرع مع الله عز وجل** لأنه الرب وحده، وربوبيته شاملة لأمره الكوني والشرعي.

وهناك فِرَق أشركت في توحيد الربوبية، وليس ألحدت، أي أنها جعلت مع الله ربّاً غيره، ومن هؤلاء

- **المجوس الأصلية**، المجوس قالوا بالأصلين: النور والظلمة، وقالوا إن النور أزلي، والظلمة محدثة، فيقولون إن النور هو الله، والظلمة محدثة، فهم جعلوا الظلمة مع الله سبحانه وتعالى في الربوبية.
- **الثانوية من المجوس** أصحاب الاثنين الأزليين، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس الذين قالوا بحدوث الظلام، لكن قالوا باختلافهما في الجوهر والطبع والفعل والخبر والمكان

والأجناس والأبدان والأرواح، ولم يقولوا بتماثلهما في الصفات والأفعال، ويقال بتساويهما في القدم، فهم جعلوا إله النور والظلمة، فالمجوس والثانوية كلهم حتى القائلين بالأصلين وأنهما قديمان أيضا وقعوا في الإشراك في الربوبية.

▪**المانوية أصحاب ماني بن فاتك الحكيم** قالوا إن العالم مصنوع من أصليين قديمين، لكن قالوا باختلافهما في النفس والصورة والفعل والتدبير.

▪**النصارى القائلين بالتثليث** فالنصارى لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل هم متفقون على أنه صانع واحد يقولون باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد، ويقولون واحد بالذات وثلاثة بالأقلوم أو بالخواص أو بالصفات، فهم لم يستطيعوا أن يفسروا ثلاثة بالأقلوم، والأقاليم هذه عجزوا عن تفسيرها، قالوا قولا ولم يستطيعوا تفسيره، فقد سماهم الله الضالين كما في سورة الفاتحة، وأمرنا أن نستعيذ من طريقتهم ومنهجهم والمسلك الذي سلكوه، فلو اجتمع عشرة من النصارى على أن يخرجوا بقول واحد لخرجوا بأحد عشر قولا.

وقولهم هذا في الربوبية متناقض أيما تناقض، وتصوره كاف في رده، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى "**ولهذا قالت طائفة من العقلاء إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلا مقالة النصارى، وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا، بل تكلموا بجهل وجمعوا في كلامهم بين النقيضين، ولهذا قال بعضهم: لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولا، وقال آخر: لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولا وامرأته قولا آخر وابنه قولا ثالثا**" انتهى كلامه.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في معرض رده عليهم: "**أما خبر ما عندكم أنتم فلا نعلم أمة أشد اختلافا في معبودها منكم -النصارى- فلو سألت رجلا وامرأته وابنته وأمه وأباه عن دينهم، لأجابك كل منهم بغير جواب الآخر**" أورد ذلك في هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

بل قيل فيهم لو توجهت إلى أي نصراني على وجه الأرض، وطلبت منه أن يصور لك حقيقة دينه وما يعتقده في طبيعة المسيح عليه السلام تصويرا دقيقا، لما استطاع ذلك، ومعلوم انحراف النصارى، ومحاولة اليهود قتل عيسى عليه السلام، ونزول الشبه على غيره، وقتلهم لمن أشبه عيسى عليه السلام، فظنوا أنهم قتلوه وأنهم صلبوه، وهم ما قتلوه ولا صلبوه ولكن شبه لهم، وهذه العقيدة التي استمرت معهم وظنهم أن عيسى عليه السلام مقتولا وتكذيب الله سبحانه وتعالى لهم في كتابه الكريم.

وقد بين الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه "ظهر الحق" ما عندهم من التناقض وكذلك بعض المؤلفين في النصرانية وبينوا زيف ذلك وكذبهم، وأنا أقول: من أراد أن يعرف نعمة الله عليه، ونعمة الإسلام التي هو فيها، فليحاور نصرانيا، فبضدها تتبين أو تتميز الأشياء، وبضده يعرف الضد، إذن إذا أردت

أن تعرف ما أنت عليه من الحق وأن تقدر ما أنت عليه من الحق وتلمس هذه النعمة العظيمة التي وهبها لك الله تعالى نعمة التوحيد ونعمة السنة، فحاور نصرانيا، فإنك بذلك ستعرف النعمة التي أنت عليها وسيزيد إيمانك.

▪الخامس: من الفرق التي أشركت في توحيد الربوبية هم **القدرية فهم في الحقيقة مشركون في الربوبية،** وهذا **لازم لمذهبهم، لأنهم يرون أن الإنسان خالق لفعله،** فهم أثبتوا لكل أحد من الناس خلق فعله، والله سبحانه وتعالى اختص بذلك بقوله: (والله خلقكم وما تعملون)، وأفعال العباد لا يخرجها شيء من عموم خلقه عز وجل فالله خلق الصانع وصنعته.

▪السادس: ممن وقع منهم الشرك في توحيد الربوبية **الفلاسفة الدُّهرية** في **قولهم في حركة الأفلاك** بأنها تسعة، وأن التاسع منها هو الأطلس يحرك الأفلاك كلها فجعلوه مبدأ الحوادث وزعموا أن الله يحدث ما يقدره في الأرض.

▪السابع : ممن وقع منهم الشرك في توحيد الربوبية **بعض عبدة الأصنام من مشركي العرب وغيرهم** ممن كانوا **يعتقدون أن الأصنام تضر وتنفع،** فيتقربون إليها وينذرون لها ويتبركون بها.

▪الثامن: ممن وقع منهم الشرك في توحيد الربوبية **غلاة الصوفية، لغلوهم في الأولياء وزعمهم أنهم يضرون وينفعون، ويتصرفون في الأكوان، ويعلمون الغيب، ولقولهم بوحدة الوجود وربوبية كل شيء.**

▪التاسع: ممن وقع منهم الشرك في توحيد الربوبية **الروافض لقولهم أن الدنيا والآخرة للإمام يتصرف بها كيف يشاء، وأن تراب الحسين شفاء من كل داء، وأمان من كل خوف، ولقولهم أن أئمتهم يعلمون الغيب، ويعلمون متى يموتون ولا يموتون إلا بإذنهم،** وهذا باطل وبطلانه لا يحتاج إلى دليل، بل إن فساده يغني عن إفساده فهو ظاهر الفساد.

▪العاشر: ممن وقع منهم الشرك في توحيد الربوبية **النصيرية لقولهم بألوهية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنه متصرف في الكون، ووصفهم إياه بأوصاف لا يجوز أن يوصف بها أحد إلا الله عز وجل،** مع اختلاف أقوالهم في هذا، فبعضهم يقول إنه يسكن في الشمس ويسمون **بالشمسية،** وبعضهم يقول إنه يسكن في القمر ويسمون **القمرية،** وبعضهم يقول يسكن في السحاب، ولذا إذا رأوا السحاب قالوا السلام عليك يا **أمير النحل.**

▪**الدروز** وقع منهم الشرك في توحيد الربوبية، **لقولهم بألوهية الحاكم بأمر الله العبيدي وغلوهم فيه، ووصفه بأوصاف لا تليق إلا بالله وحده،** كقولهم عنه إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، هؤلاء وقع منهم الشرك في الربوبية، هذا ما لدي من كلام عن توحيد الربوبية.